



لقد نشأ سيدنا محمد ﷺ وترعرع في قوم اتسم بالقسوة والهمجية، وبعث في عصر تلاشت فيه القيم الأخلاقية والإنسانية أو كادت، وفي بيئة سادها انحلال خلقي وانحطاط روحاني. ومما لا يختلف فيه اثنان أن هداية هؤلاء الناس إلى الصراط المستقيم، وتسييرهم في الطريق السليم والنهج القويم، كان عملاً شاقاً ومهمة صعبة تقتضي أن يكون رُبان سفينتهم حاذقاً مغواراً لينقذهم من تيارات عاتية من الانحراف، وأمواج عارمة من الغي والضلال حتى يوصلهم إلى بر الأمان. لذلك عندما أرسل الله سيدنا محمداً رسولاً وهادياً إلى هؤلاء، زوده - إلى جانب من سمو الروح وسعة الآفاق وبعده النظر وغيرها من شمائل كثيرة لا تُحصى - بسلاح عظيم لإصلاح المفسد وتقويم المعوج لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وقال رسول الله ﷺ بدوره: "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، وذلك لأن فقدان الأخلاق السامية هو الذي قد أدى بهم إلى الحالة التي انتهوا إليها. إن أصحابه ﷺ كانوا يذكرون أخلاقه العالية

ينابيع المحبة

لقد كان لأخلاقه السامية وشمائله الجميلة وصفاته الطيبة، وقعٌ عظيمٌ وأثرٌ عميقٌ في نفوس الناس، حيث كانوا ينجذبون إليه انجذاباً وكأن قلوبهم قد شدت إليه بجبال. هكذا فإنهم أصبحوا يلازمونه، ويفضّلون صحبته على صحبة الأهل والأقارب ولو قرصهم الجوع والعطش، ولو ضاقت عليهم الحياة.

لقد اتقدت في قلوبهم جذوة الإيمان، وأنارت دروبهم شمس الإسلام، ومن الله عليهم بحب الدين وأعطاهم برد اليقين.

وهكذا فخلال فترة قصيرة من الزمن تحول التراب إلى التبر، والشوك إلى الزهر، والرماد إلى الجمر. ومكّن الله نبيّه الكريم

من توطيد دعائم الأخلاق الفاضلة بينهم وزرع المودة والمحبة بينهم، تربطهم روابط الأخوة والألفة والتكافل،

فحوّلتهم من عبّاد الأوثان إلى حُرّاس العقيدة، ومن الأعداء الألداء إلى العشاق الصادقين له، وذلك كله كان بفضل الله

ورحمته لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَكُلُو كُنْتُمْ قَطًّا عَلِيظًا الْقَلْبُ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾

لقد بلغ حب الصحابة للنبي ﷺ مبلغاً لا يتحملون فيه مفارقتة،

شهادات ودلالات عظيمة على الحب المنقطع النظير الذي أبداه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم لخير خلق الله سيدنا محمد المصطفى ﷺ سبقي إلى الأبد شاححة وبارزة لكل من له عينان.

إحياءً لذكرى المولد النبوي الشريف أهدي إلى جميع قرائنا الأفاضل هذه الباقة من الأخلاق الحميدة السامية لعلها تجد مكاناً في زوايا قلوبنا فتضيء ظلماتها وتبهر حواسكها. محمد طاهر نديم

بالكلمات التالية: كان عليه الصلاة والسلام أصدق الناس لهجةً، وألينهم عريكةً، وأكرمهم عشيرةً. من رآه بديهياً (أي مفاجئاً) هابه، و من خالطه معرفةً أحبه. يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ. (١)

وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: سألت أبي عن سيرة رسول الله ﷺ في جلسائه فقال: "كان رسول الله ﷺ دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب. ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب ولا فحاش، ولا عتاب، ولا مشاح (أي بخيل). يتغافل عما لا يشتهي، ولا يؤيس منه راجيه ولا يخيب فيه، فقد ترك نفسه من ثلاث: المراء، والإكثار، وما لا يعنيه. وترك الناس من ثلاث: كان لا يدب أحداً، ولا يعيبه، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه. وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ". (٢)

على ظهر الأرض من أهل خباء (وهو الخيمة من الوبر أو الصوف على عمودين أو ثلاثة و يعبر به عن مسكن الرجل وداره) أحب إلي أن يذُلُّوا، من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي أن يعزُّوا من أهل خبائك. (٤)

العدو ينقلب إلى عاشق ولهان

عن أبي هريرة قال: "بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال. فربطوه بسارية من سواري المسجد. فخرج إليه النبي ﷺ فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تُنعم، تُنعم على شاكر. وإن كنت تريد المال، فسأل منه ما شئت. فترك حتى كان الغد، ثم قال له: ما عندك يا ثمامة؟ قال: ما قلت لك: إن تُنعم، تُنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك. فقال: أطلقوا ثمامة. فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. يا محمد، والله، ما كان على وجه الأرض أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي. والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إلي، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إلي." (٥)

هل لأي سيف من سيوف الدنيا أن تغير القلوب هكذا رأساً على عقب؟ وهل لأي سلاح في العالم أن يحدث مثل هذا التحول بحيث ينقلب العدو إلى عاشق، والمبغض إلى محب صادق؟ نعم إنه كان سيف أخلاق النبي السامية التي كانت تستميل القلوب وتستهيئها، فيدخل فيها نور الإيمان، فيضيء ظلماتها، وينير حواكها.

بل اختار محمداً

قدم حكيم بن حزام بن خويلد من الشام برقيق وفيهم زيد بن حارثة، فدخلت عليه عمته خديجة بنت خويلد فقال لها: اختاري يا عمّة، أي هؤلاء الغلمان شئت فهو لك، فاختارت زيداً فأخذته، فرآه رسول الله ﷺ عندها، فاستوهبه منها، فوهبته له، فأعتقه رسول الله ﷺ وتبناه، وذلك قبل أن يوحى إليه.

ومن جانب آخر مضى حارثة (أبو زيد) يجوب الديار ويقطع الصحارى ويسائل القبائل والقوافل عن ولده و فلذة كبده وراح ينشد هذه الأبيات:

أحيي فيرجى أم أتى دونه الأجل
أعالك بعدي السهل أم غالك الجبل؟
وتعرض ذكره إذا غربها أفل
فيا طول ما حزني عليه ويا وجل
فكل امرئ فان وإن غره الأمل (٦)

بكي على زيد ولم أدر ما فعل
فوالله ما أدري وإنني لسائل
تذكرني الشمس عند طلوعها
وإن هبت الأرواح هيحن ذكره
حياتي أو تأتي علي مني

ويفدونه بالروح والدم. إن هذا الموضوع لبحر زاخر لا تعلم شواطئه، وخصم عميق لا تُعرف أغواره، وسأحاول أن أقدم بعض النماذج من هذا الحب المتدفق العظيم المنقطع النظير في أصحاب أي نبي من الأنبياء عليهم السلام.

إنك لأحب إلي من نفسي...
جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله، إنك لأحب إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من ولدي، وإنني لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك."

وفي رواية: "فلو لا أني أحيي فأنظر إليك ظننت أن نفسي تخرج." (٣)

ما أنبل هذا الشوق الذي لا شيع فيه، وما أشرف هذه اللوعة التي لا تهدأ، وما أروع هذا الغليل الذي لا شفاء منه.

تحول عجيب

وها هي إحدى الصحابيات رضوان الله عليهن تصف حالها قبل الإيمان بالنبي ﷺ وحالها بعده.

"عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت هند بنت عتبة وقالت: يا رسول الله، ما كان

وفي أحد مواسم الحج التقى نفر من حبي حارثة بزید في مكة، ونقلوا إليه لوعةً والديه، وعندما رجعوا أخبروا أباه ووصفوا له موضعاً. وما أن علم والد زید مستقرّ ولده حتى أعدّ السيرَ إليه ومعه أخوه. فقدمَا مكة فسألا عن النبي ﷺ، فقيل: هو في المسجد فدخلا عليه فقالا: يا بن عبد المطلب، يا بن سيّد قومه، أنتم أهل حرم الله. تفكّون العاني وتطعمون الأسير، جنناك في ولدنا عبدك فأمنن علينا وأحسن في فدائه. فقال ﷺ: وما ذاك؟ قالوا: زید بن حارثة. فقال: أو غير ذلك؟ ادعوه، فخيروه، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني فداء. فتهلل وجه حارثة الذي لم يكن يتوقع كل هذا السماح، وقال: لقد أنصفتنا وزدتنا على النصف. ثم بعث النبي ﷺ إلى زید ولما جاء سأله: هل تعرف هؤلاء؟ قال زید: نعم، هذا أبي وهذا عمي. فقال ﷺ له: فأنا من قد علمت، وقد رأيت صحبتي لك فاخترنني أو اخترهما. فقال زید: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً. أنت مني بمكان الأب والعم. فقالوا:

ويحك يا زید، أختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال: نعم، إنني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً. فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجته إلى فناء الكعبة فقال: اشهدوا أن زیداً ابني يرثني وأرثه. فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفساهما وانصرفا. فدُعِيَ زید ابن محمد، حتى جاء الله بالإسلام ونزل أمر الله: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾. (٧) ما الذي حدا بزید يا ثري أن ييدي مثل هذا الوفاء الذي يندر نظيره؟ لاشك أنه تعلق تعلقاً عجيباً بشخص رسول الله ﷺ متأثراً بأخلاقه العالية وسلوكه الحسن ومعاملته الطيبة، وكأنه وجد كنزاً جميلاً لا يقدر على التخلي عنه مهما يكن من ثمن يؤديه لقاء ذلك. **غيرة وحب منقطع النظير** "عن مالك بن عمير ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إنني لقيت العدو ولقيت أبي فيهم. فسمعت لك منه مقالةً قبيحةً، فلم أصبر حتى طعنته، أو حتى قتلته." (٨) هذا هو شأن الحب الإيماني الخالص عندما يبلغ أوجه

فيصغر أمامه كل حب، وتهون أمامه كل علاقة.

نحري دون نحرک

"عن أنس ﷺ قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ محبوبٌ عليه بحفنة له... ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي، لا تُشرف، يُصيبك سهمٌ من سهام القوم، نحري دون نحرک." (٩)

رغبة سعد بن معاذ

قال سعد بن معاذ ﷺ يوم بدر: "يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعدّ عندك ركائبك، ثم نلتقي عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن ورائنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشدّ حباً لك منهم. ولو ظننوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك... فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير، ثم بُني له عريش كان فيه." (١٠)

يعرف أخرج منه حيّاً أم ميتاً، لكن الأمر الذي يقلقه في هذا الوقت، هو أن لا يصيب رسول الله ﷺ أيّ مكروه، وأن يعود سالمًا إلى المسلمين بالمدينة.

لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك

استشار رسول الله ﷺ أصحابه يوم بدر بقوله: "أشيروا علي أيها الناس." فقال سعد ابن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، فقال سعد: ... فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك. فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد... لعل الله يُريك منا ما تقرُّ به عينك، فسرّ على بركة الله. فسرّ رسول الله ﷺ بقول سعد ﷺ. (١١)

إن هذه الكلمات كانت أصدق تعبير عن الحب والإخلاص والوفاء، كما أنها كانت لسان حال الجميع، وتعبيراً حقيقياً عما يدور بخلد كل واحد من الصحابة، إلا أن سعدًا سبقهم في القول بها.

نقاتل عن يمينك وعن شمالك نستعرض مثالا آخر للحب

ولكن يرّ أباك وأحسن صحبته. حتى أدركه بتبوك. (١٥)
ابتلاء كعب والوفاء العظيم يروي كعب بن مالك الأحداث التي مرّ بها عندما تخلف عن غزوة تبوك فيقول: ... ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه (وهم كعب بن مالك، ومرارة بن ربيعه، وهلال بن أمية). فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة... فكننت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد. وآتي رسول الله ﷺ، فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفّته بردّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت عليّ صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني. حتى إذا طال عليّ من جفوة الناس مشيت حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحبّ الناس إليّ. فسلمت عليه. فوالله، ما ردّ عليّ السلام. فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلمني أحبّ الله

وما هذا بالنصفة
شهد مالك بن قيس أحدًا والمشاهدة كلها مع رسول الله ﷺ، وتخلّف عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى تبوك عشرة أيام... ورجع بعد مسير رسول الله إلى تبوك أيامًا، إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين في حائط، قد رشّت كل واحدة منهما عريشها، ويردّت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعاما. فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأته وما صنعتا له، فقال: رسول الله ﷺ في الضحّ (أي الشمس) والريح والحرّ، وأبو خيشمة في ظل بارد وماء بارد وطعام مهنأ وامرأة حسناء في ماله مقيم، ما هذا بالنصفة (أي: الإنصاف). والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيمًا لي زادًا، ففعلتًا، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ

تري. فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمّس جلدي جلدك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير. (١٣)

محمد الأعز...

في غزوة بني المصطلق تشاجر رجل من المهاجرين مع رجل من الأنصار، فدعا المهاجري المهاجرين لنصرته والأنصاري الأنصار. فسمع ذلك النبي ﷺ، فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا رجل من المهاجرين تشاجر مع رجل من الأنصار وضربه. فقال رسول الله ﷺ: دعوها فإنها منتنة. (أي هذه الخصومات ذات طابع الجاهلية ما قبل الإسلام). فسمع ذلك عبد الله بن أبي بن سلول فقال: أو قد فعلوا ذلك؟ والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأدلّ. فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: دعّه، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه. (١٤)

... فقبل بطنه
عدّل رسول الله ﷺ صفوف أصحابه يوم بدر وفي يده قذح (أي: سهم) يعدل به القوم. فمرّ بسواد بن غزيرة... فطعن في بطنه بالقذح وقال: استوي يا سواد. فقال: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقدني (أي مكّني من أن أقتصّ منك). فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه فقال: استقّد. فاعتنقه فقبل بطنه فقال: ما حمّلك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله، خصّ ما



” هذا هو الحب الحقيقي الذي يدفع الإنسان إلى أن يصافح
النايا مبتسما، ويخوض المهالك غير مبالٍ بالمخاطر والأهوال،
ويكون هدفه الوحيد وراء كل هذا ألا يصيب حبيبه أي مكروه.“

علي رسول الله ﷺ قلت: لو أن روحِي بيدي ووَكَّبْتُهَا
بأبي أنت وأمي، إني أكره لمبشري بقدمكم لم أنصفِ
أن أكون فوقك وتكون أسفل مني، فقال رسول الله
ﷺ: إن أرفق بنا أن نكون في السفلى لما يغشانا من
الناس... فلقد رأيتُ جرة لنا انكسرت فأهريق ماؤها،
فقممت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا، ما لنا لحاف غيرها ننشف
بها الماء خوفا من أن يصل إلى رسول الله ﷺ منها شيء
يؤذيه. وكنا نصنع طعاما فإذا ردّ ما بقي منه تيممنا موضع
أصابعه فأكلنا منها نريد بذلك البركة. (١٨)
لقد استنار بيتُ أبي أيوب الأنصاري بوجود النبي فيه،
وكانت سعادته بلا حدود، لأن نبي الله قد نزل ضيفا
فيه. فلم يدخر وسعا في تأمين راحته ﷺ وحسن ضيافته.
فكان يقوم بكل هذا والسرور والبهجة يغمرانه
وكانه يقول:

ورسوله؟ فسكت. فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عينايا، وتوليت حتى تسورتُ الجدار. قال: فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام يقول: من يدلني على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يُشيرون له. حتى إذا جاءني دفع إلي كتابا من ملك غسان فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة. فالحق بنا نواسك. فقلت لما قرأتها: وهذا أيضا من البلاء. فتممتُ بها التنور فسجرتُ بها. (١٦)

طوت فراش الرسول ﷺ دون أبيها المشرك

قدم أبو سفيان المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة زوج الرسول ﷺ. فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته دونه. فقال: يا بُنيّة، أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت امرؤ نجس مشرك. (١٧)

ضيافة أبي أيوب الأنصاري عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: لما نزل

ورسوله؟ فسكت. فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عينايا، وتوليت حتى تسورتُ الجدار. قال: فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام يقول: من يدلني على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يُشيرون له. حتى إذا جاءني دفع إلي كتابا من ملك غسان فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة. فالحق بنا نواسك. فقلت لما قرأتها: وهذا أيضا من البلاء. فتممتُ بها التنور فسجرتُ بها. (١٦)

إن مثل هذا الابتلاء الذي يتكرر فيه المعارف، ويغادر فيه الأقارب، والأعزاء يتسللون لوادأ، والأحباء يديرون ظهورهم، ولا يقوى المبتلى على مواجهة الأحداث إلا إذا كان على قدر كبير من الإخلاص والوفاء، ولا سيما إذا كان يرى دروبه مليئة بالأشواك وتزأى له محاذاتها طرق مفروشة

من الناس أحدًا يحبُّ أحدًا كحُبِّ أصحابِ محمدٍ محمدًا." (١٩)

وأنتى لأبي سفيان أن يجد نظيرًا لهذا الحب والعشق والفاء إذ انه لا يتأتى إلا عن إيمان صادق ووفاء خالص ويقين ثابت، وكل هذا كان مفقودًا عندهم، وجاء الإسلام ليحيي هذه القِيم المنسية.

أما حبيب فلما حملوه على الخشبة ليقتل، ناشدوه: أتحب أن محمدًا مكانك؟ قال: لا والله العظيم! ما أحب أن يفديني بشوكة يُشاكها في قدمه. (٢٠)

هذا هو الحب الحقيقي الذي يدفع الإنسان إلى أن يصفح المنايا مبتسمًا، ويخوض المهالك غير مبالٍ بالمخاطر والأهوال، ويكون هدفه الوحيد وراء كل هذا ألا يصيب حبيبه أيُّ مكروه.

مات وخده على قدم الرسول ﷺ

قال رسول الله ﷺ حين عَشِيَهُ القَوْمُ يوم أحد: من رجل يشري لنا نفسه؟ فقام

زيد بن السكن في نفر خمسة من الأنصار. فقاتلوا دون رسول الله ﷺ. فقتلوا دونه، حتى كان آخرهم زياد. فقاتل حتى أعْيَتَهُ الجروح البالغة... فقال رسول الله ﷺ: أذُنوه ميني، فأذُنوه منه، فوسَّده قدمه، فمات وخَّده على قدم رسول الله ﷺ. (٢١)

ياله من حظٍّ جميل لمن كان آخر عهده برسول الله ﷺ أن يلفظ أنفاسه وهو متوسِّد قدم النبي ﷺ. هل باستطاعة أحد أن يقدر الطمأنينة التي كانت تعلو وجهه هذا الصحابي الجليل وقت وفاته، والسعادة التي كانت تغمره رغم الجروح البالغة؟ ما أحلى هذه الذكرى الأخيرة التي حملها سيدنا زياد كزادٍ له في سفره إلى الآخرة.

لا أبالي إذا سلِّمت من عطب

روى الحافظ الطبراني قصة امرأة أنصارية حين سمعت خیر وفاة الرسول ﷺ يوم أحد، فخرجت هذه المرأة تسأل عن أمر رسول الله ﷺ. فاستقبلت بأبيها وابنها

وزوجها وأخيها وقيل لهما أنهم قُتلوا، إلا أنها ما انتبهت إليهم، وما بكت عليهم، كان همها الوحيد هو رؤية رسول الله ﷺ والاطمئنان على صحته وعافيته، فمضت مُرددةً قولها: ما فعل رسول الله ﷺ؟ حتى وصلت إلى رسول الله ﷺ، فأخذت بناحية ثوبه، ثم قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ﷺ لا أبالي إذا سلِّمت من عطب. (٢٢)

هذه هي الصورة العملية لقوله ﷺ: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين.

حالة الصحابة لدى وفاة النبي ﷺ

روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنه لما تُوفِّي رسول الله ﷺ، أقبل أبو بكر فدخل المسجد.. فتيَّم رسول الله ﷺ فكشف عن وجهه ثم أكبَّ عليه فقبَّله وبكى. ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين. أما الموتة التي

كُتبت عليك فقد مَتَّها. خرج أبو بكر، وعمر بن الخطاب يكلم الناس قائلاً: والله ما مات رسول الله ﷺ... وليبعثه الله... فجاء أبو بكر فقال: أيها الخالف على رسلك، ثم توجهت إلى الناس فقال: فمن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم قرأ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَكُلَّنْ يَضُرُّ اللَّهَ شَرًّا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.

قال سعيد بن المسيب إن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكر تلاها فعُقرتُ حتى ما تُقلِّني رجلاي، وحتى أهويتُ إلى الأرض. حين سمعته تلاها علمتُ أن النبي ﷺ قد مات. (٢٣)

هذا هو حال المحبين مع محبوبهم. لا يتصوِّرون فراقه من شدة حبه لهم، وهذا كان حال الصحابة عند فراق أعز محبوب لهم تحت أديم السماء.

ذكريات تفيض بالموودة

رأى بلال رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم في منامه وهو يقول: ما هذه الجفوة يا بلال؟ ما أن لك أن تزورنا؟ فانتبه حزينا، فركب إلى المدينة فأتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وجعل يبكي عنده ويتمرغ عليه، فاقبل الحسن والحسين، فجعل يقبلهما ويضمهما، فقال له: نشتهي أن نسمع أذانك الذي كنت تؤذن به

لرسول الله صلى الله عليه وسلم السحر، فعلا سطح المسجد، فأذن فخرج الناس من بيوتهم وقالوا: أبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فتذكروا أياما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها حيا موجودا بين ظهرانيهم. فما رُبِّي يومٌ أكثرَ باكيا وباكيةً بالمدينة من ذلك اليوم. (٢٤)

وهذا هو بلال الذي حين حضرته الوفاة قال:

غدا نلتقي الأحبة

محمدًا وحزبه

وكانت امرأته تقول: واويلاه، وكان هو يقول: وافرجاه. (٢٥)

الفضل ما شهدت به الأعداء

أرسلت قريشُ عروةَ بن مسعود رسولاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، فجاءه وكلمه، ثم

رجع إلى أصحابه فقال: أي قوم، والله، لقد وفدتُ على الملوك، على كسرى وقيصر والنجاشي. والله ما رأيتُ ملكاً يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحابُ محمدٍ محمداً. والله، ما تنخّم نخامةً إلا وقعت في كف رجلٍ منهم، فدلّك بها وجهه وجلّده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا تواضوا كادوا يقتتلون على وضوءه، وإذا تكلم حفضوا أصواتهم عنده. وما يتحدثون إليه النظرَ تعظيماً له. وقد عرضَ عليكم خطبةً رشد فاقبلوها. (٢٦)

وإذا أمرهم وإذا تواضوا كادوا يقتتلون على وضوءه، وإذا تكلم حفضوا أصواتهم عنده. وما يتحدثون إليه النظرَ تعظيماً له. وقد عرضَ عليكم خطبةً رشد فاقبلوها. (٢٦)

وإذا أمرهم وإذا تواضوا كادوا يقتتلون على وضوءه، وإذا تكلم حفضوا أصواتهم عنده. وما يتحدثون إليه النظرَ تعظيماً له. وقد عرضَ عليكم خطبةً رشد فاقبلوها. (٢٦)

المصادر

- ١- الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية لحمد بن عيسى الترمذي، باب ما جاء في خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث ٧، ص ٣٣، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، ط. أولى ١٩٩٢م.
- ٢- المرجع السابق باب ما جاء في خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث ٣٥٢، ص ٢٩٠، ٢٩١.
- ٣- حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ج ٤ ص ٢٤٠ دار الكتاب العربي بيروت طبعة ١٩٨٥م.
- ٤- صحيح البخاري كتاب فضائل الصحابة باب ذكر هند بنت عتبة رضي الله عنها.
- ٥- صحيح البخاري كتاب المغازي باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال.
- ٦- السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٦٤، ٢٦٥، دار القلم بيروت طبعة ١٩٨٠م.
- ٧- الإصابة لابن حجر العسقلاني ج ٢، ص ٥٩٩، دارالكتب العلمية بيروت، ط. أولى ١٩٩٥م.
- ٨- كتاب السنن الكبرى لأحمد بن الحسين البيهقي ج ٩ ص ٢٧ دار المعرفة بيروت.
- ٩- صحيح البخاري كتاب المغازي باب «إذ همّت طائفتان منكم...»
- ١٠- السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٢٧٢، ٢٧٣، دار القلم بيروت، ط. ١٩٨٠م
- ١١- المرجع السابق ص ٢٦٧
- ١٢- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ج ٤، ص ١٤٨٢ دار الجيل بيروت ط. أولى ١٩٩٢م.
- وانظر تهذيب الكمال لجمال الدين المزي ج ٧، ص ٢١٤ مؤسسة الرسالة بيروت، ط. أولى ١٩٩٨م.
- ١٣- البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٢١٣ دارالكتب العلمية بيروت، ط. أولى ١٩٩٤م.
- ١٤- سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن. وانظر البداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ١٢٧ دار الكتب العلمية بيروت ط. أولى ١٩٩٤م.
- ١٥- أسد الغابة لابن الأثير الجزري ج ٥، ص ٤١، ٤٢ دار الكتب العلمية بيروت ط. أولى ١٩٩٤م
- ١٦- صحيح البخاري كتاب المغازي باب حديث كعب بن مالك.
- ١٧- الإصابة لابن حجر العسقلاني ج ٧ ص ١٤٢
- ١٨- المستدرک للحاكم النيسابوري ج ٣ ص ٤٦٠، ٤٦١ دار المعرفة بيروت.
- ١٩- السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ١٨١
- ٢٠- المعجم الكبير للطبراني ج ٥ ص ٢٦١ دار إحياء التراث العربي، طبعة ١٩٨٤م.
- ٢١- السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٨٦
- ٢٢- المعجم الأوسط للطبراني ج ٨، ص ٢٤٤ مكتبة المعارف برياض ط. أولى ١٩٩٥م.
- ٢٣- صحيح البخاري كتاب المغازي باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته. وانظر، صحيح البخاري كتاب فضائل الصحابة باب فضل أبي بكر رضي الله عنه.
- ٢٤- أسد الغابة لابن الأثير الجزري ج ١، ص ٤١٧. وانظر، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ج ٥، ص ٢٦٥ دار الفكر بيروت ط. أولى ١٩٨٤م
- ٢٥- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ج ٥، ص ٢٦٧
- ٢٦- زاد المعاد لابن قيم الجوزية ج ٣، ص ٢٦١، مؤسسة الرسالة بيروت، ط. ثالثة ١٩٩٨م.